الشعر في مواكبة الدعوة الإسلامية

د. عيد عبد الرحمن قناوى
مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

جاءت دعوة الاسلام بعبادة الله واحد لا شريك له ، وطلبت من الناس نبذ ما كان يعبد آباؤهم من قبل ، كما طلبت منهم الالتزام بكل المبادىء التى يبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكانت هذه الدعوة مناهضة لكل ما كانوا يعتقدون ، ولم يكن من السهل على غالبيتهم أن يوافقوا داعى الله ـ عز وجل ـ لأن مبادئهم التى تعودوا عليها تدخل فى مجال الالف والعادة أو الارث الذى يجب أن يحافظ عليه الخلف بعد السلف ، وتكرر منهم ما اقله الأولون لسيدنا ابراهيم الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ، فاذا كان رد قوم سيدنا ابراهيم عليه حين دعاهم الى عبادة الله ـ عز وجل ـ وترك عبادة الأصنام هو « وجدنا آباءنا لها عابدين »(١) فان رد قوم الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفس الشأن هو « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »(٢) .

ولقد أصر المشركون على استمساكهم بعبادة الأصنام ، واتخاذها آلهة من دون الله تعالى . ولم يحاولوا اعمال فكرهم فى شأن هذه الأصنام التى لا تنفع ولا تضر بل كانوا يعجبون من الدعوة التى تأمرهم بتوحيد الله ـ عز وجل ـ فيقولون : « أجعل الآلهة الها واحدا

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٥٣ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

ان هذا لشيء عجاب »(٣) ؟ ويحتجون بأنهم ورثوا هذا من آبائهم وأنه لم يبلغهم عنهم مثل هذا القول من توحيد فكانوا يقولون : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق »(٤) .

ومن هذا المنطلق المعاند المكابر يلحظ أن القرشيين لم يقبلوا الدعوة، ولم يأنسوا ان تابعها ، بل أنزلوا بهم كل أنواع العقاب ، وتفننوا فيها، ولكنهم كلما زادوا فى العقاب زاد أصحاب الدعوة فى الاستمساك بها، والاستهانة بالموت فى سبيلها .

ولم يقتصر أمر الأذى على التعذيب البدنى وحده، وانما كان هناك السب والشتم سواء أكان فى صورة كلامية عادية أم فى صورة شعرية، فقد اتخذ المشركون من الشعر سلاحا فى مواجهة الدعوة ، ولم يكن للمسلمين فى أول الأمر من يدفع عنهم القول بمثله ، لأن الغلبة العددية كانت للمشركين ولكن الله عز وجل كان يرد عليهم كيدهم وايذاءهم ، فعندما وقف أبو لهب من الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه المشهور الذى قال فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «تبا لك ألهذا جمعتنا»؟ نزل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد »(٥) .

وكانت زوجة أبى لهب شديدة الايذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نزل فيها وفى زوجها السورة المذكورة ، ثارت ثائرتها وذهبت الى المسجد الحرام تريد ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(٣) سورة « ص » الآية ٥ .
(٤) سورة « ص » الآية ٧ .
(٥) سورة المسد .

بحجر كان فى يدها ، وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يجلس مع أبى بكر فى المسجد الحرام فلما وقفت عليهما أخذ الله بصرها ، فلم تعد ترى الا أبا بكر ــ رضى الله عنه ــ ، فقالت له : أين صاحبك ؟ لقد بلغنى أنه يهجونى لو وجدته لضربته بهذا الحجر ، أما والله أنى لشاعرة ، ثم قالت :

مذ مما عصينا وأمره أبينـــا
ودينـــه قلينـــا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك؟فقال : « ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى »(٦) .

ولم يمنع هذا الايذاء الناس من الدخول فى الدين والاستمساك به.

الشعر فى صف الدعوة قبل الهجرة :

مما سبق يتضح لنا أنه لم يؤمن بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أهل مكة الا نفر قليل ، وهم علـــى قلتهم لم يكن بينهم أحـــد يحسن الشعر أو يجيد القريض ، هذا على أن الدعوة قـــد بدأت أول أمرها سرا كما أن أكثر الذين اعتنقوا الاسلام أثناء مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة كانوا يستخفون من أذى المشركين ، فاذا وجـــدنا المسلمين فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الدعوة يزورون عن قـــول الشعر لأن فى قوله ضرر أى ضرر ينتاب المسلمين اذ أن الشـــعر كان ومازال سريع السريان بين أفـــراد بنى الانسان ، ولا غرو فقـــد كان الشعر ينتقل آنذاك من شخص الى شخص ومن قبيلة الى قبيلة ومن صقع الى صقع فى ديار العرب والأعراب بسرعة ومض البرق فى فصل الشتاء أو كانتشار نور الفجر فى الأفق أثر انقشاع ظلام الليل .

---

(٦) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦ . ونهاية الأرب جـ ١٩ ص ٢٦٩

فكان هذا يزيد من جنون قريش ويجعلها تكيل الصاع صاعين ضد الاسلام والمسلمين عندما كانت تسمع شعرا فى تأييد دعوة تسفه أحلامهم وترمى بالضلالة آباءهم ، وتذهب بما لهم من امتيازات أدبية ومادية .

ومن ثم لم يرو مؤرخو الأدب شعرا يواكب الدعوة الاسلامية الا قدرا ضئيلا : منه ما كان لأبى طالب يعلن فيه اصراره على الوقوف بجانب ابن أخيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ رغم كل الاحتمالات .

فقد كان أبو طالب يقوم بقرض الشعر فى مناسبات كثيرة،تجعل من الممكن القول بأنه شاعر الدعوة فى مكة حيث كان يدافع عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويجيره من قومه ، بل ويجير غيره ، وقد قال أبو طالب شعرا يثير فيه حمية أبى لهب لنصرة ابن أخيه والوقوف فى وجه من يؤذونه ، وذلك عندما سمع بادرة من أبى لهب تبين فورة من فورات غضبه ضد من يثقلون على أبى طالب فى أمر جواره لبعض المسلمين ، يقول أبو طالب فى هذا :

وان امرء أبو عتيبة عمه
لفى روضة ما ان يسام المظالما
أقول له وأين منه نصيحتى
أبا معتب ثبت سوادك قائما
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطه
تسب بها اما هبطت المواسما

---

(٧) انظر : تاريخ الشعر العربى جـ ١ ص ١٧ د. محمد عبدالعزيز الكفراوى .

وول ســـبيل العجز غـــيرك منهم
فانك لم تخلق على العجز لازمـــا
وحـــارب فان الحرب نصف وما ترى
أخا الحرب يعطى الخسف حتى يســـالما
وكيف ولم يجنـــوا عليك عظيمة
ولم يخذلوك غانمـــا أو مغـــارما
جـــزى الله عنا عبد شمس ونوفلا
وتيمـــا ومخزومـــا عقوقا ومأثمـــا
بتفـــريعهم من بعـــد ود وألفة
جماعتنـــا كيما ينالوا المحـــارما
كذبتم وبيت الله نبـــزى محمـــدا
ولما تروا يوما لدى الشعب قائما(٨)

وهذا ليس بغريب على رجل شارك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المسلمين آلام محنة المقاطعة القرشية ، كما أن هذا الشعر ليس غريبا لأن صاحبه قال قصيدة جيدة فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد أن تبين للقوم صدق الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ وأن الأرضة أكلت صحيفة المقاطعة ، وقد بدأها بلوم قومه عـــلى ما فعلوا من مقاطعة آل عبد المطلب ومن أبياتها قوله :

خليـــلى ما أذنى لأول عـــاذل
بصـــغواء فى حتى ولا عنـــد باطل
خليـــلى ان الرأى ليس بشركـــة
ولا نهنهة عنـــد الأمور البـــلابل

---

(٨) السيرة النبوية لابن هشـــام جـ ٢ ص ١٥ تقـــديم وتعليق طه عبد الرءوف سعد .

ولما رأيت القـوم لا ود عنـــدهم
وقد قطعـوا كل العرى والوسـائل
وقد صارحونا بالعـــداوة والأذى
وقـد طاوعوا أمر العـــدو المزايل
وقد حالفـــوا قوما علينـــا أظنة
يعضـــون غيظا خلفنا بالأنامـل
صبرت لهم نفس بسمراء ســـمحة
وأبيض مخصب عن تـراث المفاول

ثم يبين للقرشيين أنه لن يسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما كلفه ذلك من دماء ، فيقول :

كذبتم وبيت الله نتـــرك مكـــة
ونطعـن الا أمـركم فى بلابـــل
كذبتم وبيت الله نبـــزى محمـدا
ولما نطـــاعن دونـه ونناضـــل
ونســـلمه حتى نصـــرع حوله
ونذهـــل عن أبنائنا والحـــلائل
وينهض قـــوم فى الحـديد اليكم
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وحتى نرى ذا الطعن يركب ردعـه
من الطعن فعل الأنكب المتحـــامل
وأنا لعمـــر الله ان جـد ما أرى
لتلتبس أسـيافنا بالأنامـــل

ثم يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

وأبيض يستسقى الغمـام بوجهه
شـمال اليتامى عصمة للأرامـــل

يلوذ به الهـــلال من آل هاشـــم
فهم عنـــده فى رحمـــة وفواضـــل
لعمـــرى لقد كلفت وجدا بأحمـــد
واخـــوته دأب المحب المواصـــل
فلا زال فى الدنيـــا جمالا لأهلهـــا
وزينـــا لمن ولاه رب المشاكل
فمن مثله فى النـــاس : أى مؤمل
اذا قاسه الحكـــام عند التفاضل
حليم رشـــيد عادل غـــير طائش
يوالى الها ليس عنـــه بغـــافل
فأيده رب العبـــاد بنصـــره
وأظهـــر دينا حقه غير ناصـــل(٩)

ولم يكتف أبو طالب بالدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عند القرشيين ، وانما تعدى هذا الدفاع موقع مكة ليجرى وراء من هاجروا الى الحبشة ، فقد روى أن أبا طالب أرسل أبياتا الى النجاشى يحضه فيها على ألا يخفر ذمة من استجاروا به من المهاجرين ، بعد أن علم أن قريشا أرسلت فى طلبهم من النجاشى ، يقول أبو طالب فى هذا(١٠) :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر
وعمـــرو وأعداء العدو الأقـــارب

---

(٩) خزانة الأدب للبغدادى جـ ٢ ص ٥٩ ـ ٧٥ ، سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٥ .

(١٠) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٨ .

وهل نالت أفعال النجـــاشى جعفرا
وأصـــحابه أو علق ذلك شـــاعب
تعـــلم ــ أبيت اللعن ــ أنك ماجـــد
كريم فلا يشـــفى لديك المجـــانب
تعـــلم بأن الله زادك بســـطة
وأســـباب خـــير كلهـــا بك لازب
وأنك فيض ذو ســـجال غـــزيرة
ينـــال الأعادى نفعها والأقـــارب

ولم يخفر النجاشى جوار المهاجرين ، ورجع الوفـــد الذى ذهب لاستلام المهاجرين خـــائبا من سفرته ، وأمن المهـــاجرون ، وأحســـوا بالطمأنينة مما جعل الشعر ينطلق على ألسنتهم فيقول أحدهم وهـــو عبد الله بن الحارث(١١) :

يا راكبـــا بلغـــن عنى مفلعـــة
من كان يرجـــو بلاغ الله والدين
كل امـــرء من عباد الله مضـــطهد
ببطن مكـــة مقهـــور ومفتـــون
أنا وجـــدنا بلاد الله واســـعة
تنجى من الذل والمخـــزاة والهون
فلا تقيمـــوا على ذل الحيـــاة وخزى
فى الممـــات وعـــيب غـــير مأمون
أنا تبعنـــا رسول الله وأطرحـــوا
قـــول النبى وعـــالوا فى الموازين

---

(١١) المرجع السابق ٢٨٦ .

فاجعل عذابك فى القـــوم الذين بغوا
وعـــائذ بك أن يغلـــو فيطغـــونى

واذا كان قول الشعر غير ميسور بين جدران مكة ، وعلى مرأى ومسمع من أبى جهل وبطانته فانه سهل على من جاوز تلك الأسوار • ومن نماذج ذلك ، تلك الأبيات التى أرسلها عثمان بن مظعون من الحبشة الى ابن عمه أمية بن خلف يعاتبه فيها على ايذائه اياه بسبب اسلامه ايذاء جعله يفر الى الحبشة ، مع أن أمية لو شاء لكاف ابن عمه فى عز ومنعة وفيها يقول(١٢) :

أتيم بن عمرو للذى جـــاء بغضه
ومن دونه الشرمان والبرك أكتع(١٣)
أأخرجتنى من ربطـــة مكة آمنـــا
وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع(١٤)
وحـــاربت أقواما كرامـــا أعـــزة
وأهلكت أقـــواما بهم كنت تفـــزع
ســـتعلم ان نابتـــك يومـــا ملمة
وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع(١٥)

---

(١٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٧ •

(١٣) تيم بن عمرو هو جمح وهو الجد الأعلى لعثمان وامية والشرمان: تثنيـــة شرم وهو الخليج أولجـــة البحـــر ، ولعله حين ثناه عن الخليجين اللذين يتكونان بين اليمن والحبشة نتيجة لتوسط جزيرة هلك فى الممر المـــائى الواصل بين هاتين الدولتين • البرك : يطلق على مواضع كثيرة بعضها باليمن وبعضها بين اليمن والحجاز • أكتع : أجمع •

(١٤) صرح بيضاء : مدينة بالحبشة • وتقذع : تكره •

(١٥) الأوباش : الأخلاط والضعفاء •

ومن الأشعار التى أنشدت قبل الهجـرة قصيدة تعـد فريدة فى موضوعها أرسل بها أبو قيس بن الأسلت وكان يحب قريشا وكان لهم صهرا يأمرهم فيها بالكف عن القتال،وتسوية ما بينهم وبين بنى هاشم حول رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بطرق ودية • والقصيدة طويلة تبدأ بقوله(١٦) :

يا راكبـــا اما عرضـت فبلـغن
مغلغلـة عنى لؤى بن غـالب(١٧)
رسـول امرىء قد راعه ذات بينكم
على النأى محزون بذلك ناصب(١٨)

وفيها يقول :

وقـــل لهم والله يحكـم حكمه
ذروا الحرب تذهب فى المراجب(١٩)
متى تبعثـــوها تبعثوها ذميمة
هى الغول للاقصين أو للأقارب(٢٠)
تقطـــع أرحـــاما وتهلك أمـــه
وتبرى السديف من سنام وغارب(٢١)

---

(١٦) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٤ •

(١٧) مغلغلة بصيغة اسم المفعول : محمولة من بلد الى بلد صفة الرسـالة •

(١٨) الناصب العيى •

(١٩) المراجب : الأماكن المتسعة •

(٢٠) الغول : الهلاك •

(٢١) تبرى : تقطع • السديف : لحم السنام • الغارب : أعلى الظهر

وتستبدلوا بالأتحمية بعدها
شليلا وأصداء ثياب المحارب(٢٢)
وبالمسك والكافور غبرا سوابغا
كأن قتيرها عيون الجنادب(*)

وفيها يقول أيضا :

أقيموا لنادينا حنيفا فأنتم
لنا غاية قد يهتدى بالذوائب(٢٣)
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة
نؤمن والأحلام غير عوازب (٢٤)

وبعد هذه السياحة تستطيع القول كما سبق : « ان النصوص الأدبية التى تعرضت للدعوة الاسلامية قبل الهجرة كانت قليلة » •

مواكبة الشعر الدعوة بعد الهجرة النبوية :

من المعلوم أن قريشا كانت تقف بالمرصاد فى وجه الدعوة الاسلامية وتحاول بكل وسيلة أن تمنع الناس من الدخول فى الدين الجديد •

وشاءت ارادة الله تعالى أن تموت السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وعمه أبو طالب فى عام واحد وهما كانا يلعبان

---

(٢٢) الأتحمية : ثياب فاخرة تصنع باليمن • والشليل : الدرع الصغير والأصداء : الحديد •
(*) القتير : حلق الدرع •
(٢٣) الذوائب : الأعالى •
(٢٤) الأحلام : العقول • والعوازب : البعيدة •

دورا بارزا فى حيـاة النبى صلى الله عليـه وسلم أثناء دعـوته الى رسالة الله عز وجل .

فبعد وفاتها أشتد الأذى برسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ووصل الأمر الى التآمر لقتله ، عندئذ أمره الله تعالى بالهجرة بعد أن هيئت أرض المدينـة المنـورة لاستقبال داعى الله بعد بيعة العقبـة ومعاهدة نقباء الأوس والخزرج ، وقد سجل كعب بن مالك فى شعره أمر النقباء فقال(٢٥) :

أبلـغ أبيـا أنه قال رأيـه
وحان غـداة الشعب والحين واقع
أبى الله مـا منتك نفسـك انـه
بمرصـاد أمر الناس راء وسـامع
وأبلغ أبا سـفيان أن قـد بدا لنا
بأحمـد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن فى حشـد أمـر تريـده
وألب وجمع كل ما أنت جـامع
دونك فاعلـم أن نقض عهـودنا
أبـاه عليك الرهط حين تبـايعوا
أباه البـراء وابن عمـرو كلاهما
وأسـعد يأباه عليـك ورافـع
وسـعد أباه السـاعدى ومنذر
لأنفك ان حـاولت ذلك جـادع

---

(٢٥) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ٦٥ تحقيق وتعليق طه عبد الرءوف سعد ط ١٩٧٤ .

وما ابن ربيـــع ان تناولت عهـده
بمســلمه لا يطمعــن ثم طـــامع

وأيضـــا فلا يعطيــه ابن رواحــة
واخفـــاره من دونه الســم ناقع

وفـــاء به والقـــوقلى بن صامت
بمنـــدوحة عمـــا تحاول يافـــع

أبو هيثم أيضـــا وفى بمثلهـــا
وفاء بمـــا أعطى من العهـد خانع

وما ابن حضير ان أردت بمطمـــع
فهل أنت عن أحمـوقة الغى نازع

وســـعد أخو عمرو بن عوف فانه
ضروح لما حـاولت ملأمر مـــانع

أولاك نجـوم لا يغيبـــك منـهم
عليك بنحس فى دجى الليل طـــالع

وسارت الرحلة المباركة تحيط بها عناية الله عز وجل ، ولم يكن الأذى يستطيع أن يصل الى من كان الله ناصره على عدوه ،وفشلت كل محاولاتهم للعثور على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هزيمتهم فى أول الأمر عند غار ثور ، ولم يكن مع الرسول وصاحبه من الجيوش أى عدد ، وانما كانت معه جنود لا ترى ، واذا كانت الحصون تمنـع العدو لقوتها فان أضعف الحصون وأوهاها وقفت فى وجوههم ســدا منيعـا •

فان المعهود أن بيت العنكبوت أوهن البيوت كما ذكر الله عز وجل فى كتابه ، ولكنه أمام الغار كان سدا منيعا لا تستطيع أية قوة اختراقه، وكأن المولى جل وعز أراد أن يســتهزىء بهم وبقوتهم أمـام أوهى الأشـياء •

ولما تمت الهجرة المشرفة بسلام ووصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة كان ذلك فتحا لدعوة الاسلام ، لأن معتنقى الدين لن يجدوا شيئا من العنت الذى نالهم فى مكة المكرمة ، بل ان الدعوة أخذت حريتها فى الانتشار بين الناس فى يسر وسهولة وأمان ، مما جعل الأنصار يفخرون بنزول الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بعد أن لقى وأصحابه من العذاب والأذى ما تنوء به الجبل • يقول أبو قيس صرمة بن أبى أنس أحد بنى النجار(٢٦) :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة
يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه
فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه
فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى
وكان له عونا من الله باديا
يقص علينا ما قال نوح لقومه
وما قال موسى اذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحدا
قريبا ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حل مالنا
وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شىء غيره
ونعلم أن الله أفضل هاديا

---

(٢٦) ابن هشام جـ ٢ ص ١١٤ ، وتاريخ الطبرى جـ ٣ص٣٨٥ •

نعادى الذى عادى من النـــاس كلهم
جميعا وان كان الحبيب المصـــافيا

فلما استقر الرسول صلى الله عليـــه وسلم فى المدينة ، وقـــامت للاسلام دولة ، شعرت قريش بما يهـــدد مركزها من خطر ، فلم تبق وسيلة لمحاربة الاسلام الا سلكتها ولا سلاحا الا شـــهرته ، وبدأت شاعريتها تستيقظ وتقوى ، بعد أن كانت قليلة الشعر فى جاهليتهـــا ، خاملة الذكر .

قال ابن سلام : والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ، ولم يحاربوا(٢٧) .

لكن عداوتها للاسلام حلت من عقد ألسنة أبنائها ، ومحاربتها له انطقتهم بالشعر ، فبرز منهم شعراء لم يعرفوا بالشعر قبل الاسلام ، كأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخيه فى الرضاعة ، بقى فى صفوف المشركين ، يدافع عنهم ، ويحرضهم على الاسلام والمسلمين ، ويؤذى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ويهجوه ، والى ذلك يشير حســـان بن ثابت فى قصيدته المشهورة :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

حتى تم فتح مكة فأسلم وحسن اســـلامه وخرج مع الرســـول صلى الله عليه وسلم الى الطائف وحنين ، وكان من الذين ثبتوا مـــع الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ عند مفاجأة معركة حنين(٢٨) .

ومن شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى السهمى القرشى ، كان

---

(٢٧) طبقات فحول الشعراء ص ٢١٧ .

(٢٨) سيرة ابن هشـــام جـ ٤ ص ٣١ وطبقـــات ابن سلام ١/٢٤٧ وتاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٥١ .

من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه ، بلسانه ونفسه ، وكان أشعر قريش وأبلغها ، ومن أشعاره الكثيرة في محاربة الاسلام قوله في غزوة أحد :

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجد بن مقدام بطل
صادق النجدة قوم بارع غير ملتاث لدى وقع اسل

الى أن يقول :

فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس الا أننا لو كررنا لفعلنا القتل

ولما فتح المسلمون مكة لم يطق البقاء فيها وهرب الى نجران فرماه حسان بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ ببيت واحد ، ما زاده عليه : وهو :

لا تعدمن رجلا أحلك بغضه نجران في عيش أحذ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم واعتذر الى الرسول ، فقبل عذره ، ومنهم ضرار بن الخطاب القهرى ، من شعراء قريش المعدودين وفرسانها الشجعان ، قاتل المسلمين في الوقائع أشد القتال ، وكان يقول : « زوجت عشرة من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالحور العين . وكان يقول لأبى بكر ــ بعد اسلامه ــ « نحن خير لقريش منكم ، ادخلناهم الجنة ، وأنتم ادخلتموهم النار » .

ومنهم الحارث بن هشام بن المغيرة ، أخو أبى جهل ، حارب المسلمين بسيفه ولسانه ، حتى اذا تم فتح مكة استأمنت له أم هانىء بنت أبى طالب النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمنه وصفح عنه ، ومنهم هبيرة بن أبى وهب المخزومى ، وأبو عزة الجمحى ، وعمرو بن العاص ، وأبو سفيان بن حرب ، وقد رويت لهم أشعار في المعارك الكلامية التي تدور بين مكة والمدينة .

ودخل هذه المعركة الى جانب قريش بعض الشعراء الذين لم يكونوا من مكة ولا يثرب ، ومن هؤلاء أمية بن أبى وهو من ثقيف كان يتوقع ظهور رسول من العرب ، وكان يتمنى أن ينزل عليه الوحى ، ولما نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حقد عليه وعلى المسلمين ، وراح يحرض قريشا على حرب المسلمين ، ورثى قريشا بقصائد تفيض حقدا وانفعالا ضد المسلمين ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها •

ومنهم العباس بن مرداس السلمى ، من سليم بن منصور ، وكان فارسا شجاعا ، وقف فى صف المشركين حيث مدح بنى النضير حين أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم •

كما آزر كعب بن زهير من مزينة بسبب اسلام أخيه بجير ،

وقد روت كتب التأريخ والسيرة لهؤلاء الشعراء الكثير من القصائد التى كانوا يهجون بها الرسول صلى الله عليه وسلم والدين ، وينالون منه ومن أتباعه ودعوته أشد النيل وأقساه •

وآزر يهود العرب يثرب قريشا فى حربها ضد المسلمين ، ووقف شعراؤهم الى جانب شعراء قريش ، يحرضون العرب ويؤلبونهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وكان المفروض أن يقفوا الى جانب الرسول عليه الصلاة والسلام ويعترفوا برسالته ، لأنهم أصحاب كتاب سماوى مثله ، ولكن حقدهم وطبيعة أخلاقهم ، جعلهم يؤيدون الكفر والشرك ضد الايمان والتوحيد •

ومن شعرائهم الذين حاربوا الاسلام ، وهجوا رسول الله سلام ابن أبى الحقيق وأضاف كعب بن الأشرف الى هجاء سلام التشبيب بنساء المسلمين •

وكان جبل بن جـوال ممن بكى بنى النضير وبنى قريظة وهجـا المسلمين فى مثل قوله :

ألا يا سـعد سـعد بنى معـاذ
لما لقيت قريظـة والنضـير
وأقفـرت البـويرة من سلام
وسـعية وابن أخطب فهى بـور
وقـد كانوا ببلـدتهم ثقـالا
كمـا ثقلت بميطـان الصـخور
وجدنا المجد قـد ثبتوا عليـه
بمجـد لا تغيبـه البـدور
اقيمـوا يا سراة الأوس فيهـا
كأنكـم من الخـزاة عـور
تركتم قـدركم لا شىء فيهـا
وقدر القـوم حامية تفـور(٢٩)

فانبرى له حسـان بن ثابت يسفه قوله • ويعيب على اليهـود نصرهم لقريش المشركة ، وهم أصحاب كتاب فقال :

تفـاقد معشر نصـروا قريشا
وليس لهـم ببلـدتهم نصـير
هم أوتوا الكتـاب فضـيعوه
وهـم عمى من التـوراة بـور
كفـرتم بالقـرآن وقـد اتيتم
بتصـديق الذى قال النـذير(٣٠)

---

(٢٩) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٢ •
(٣٠) ديوان حسان ١٩٤ •

وقد كان للنســـاء دور بارز فى هذه المعارك الشعرية ، فشاركن فيها بالبكاء عن القتلى ، وبالتحريض على الانتقام ، وبالتشـــفى حين يقتل رجال الأعداء .

ظهر منهن الى جانب قريش هند بنت عتبة بن ربيعة ، ومن شعرها قولها شامتة بقتل حمزة (رضى الله عنه) :

نحن جزينـــاكم بيـــوم بدر
والحـــرب بعد الحرب ذات ســـعر
ما كان عن عتبـــة لى من صـــبر
ولا أخـــى وعمـــه وبكـــرى
شفيت نفسى وقضيت نـــذرى
شفيت وحشى غليـــل صـــدرى(٣١)

ومنهن قتيلة بنت الحارث التى بكت أخاها النضر ، وعاتبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يمن عليه ويطلقه(٣٢) .

وصفية بنت مسافر التى بكت أهل القليب الذين أصيبوا يوم بدر من قريش .

ومن الشواعر المسلمات ميمونة بنت عبدالله التى ردت على كعب ابن الأشرف فى تحريضه على الرسول ، وبكائه قتلى قريش .

وصفية بنت عبـــد المطلب التى بكت أخاها حمزة بن عبـــد المطلب (رضى الله عنه) بأبيات تفيض لوعة وحزنا،ونعت فيه شمائل الاسلام .

وهنـــد بنت أثاثة التى رثت عبيدة بن الحارث حـــين استشهد من

---

(٣١) ابن هشام ج ٢ ص ٩٠ .
(٣٢) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٤٢ .

مصابة ببدر ، وناقضت هند بنت عتبة حين أعلنت تشفيها بقتل مسلمى أحد .

مما سبق نعرف أنه كان لشعراء المشركين واليهود أثر كبير فى نفس الرسول ، ونفوس المسلمين ، وفى تعويق الدعوة ، والتنفير منها ، لما كان لشعرهم من ذيوع وانتشار بين القبائل العربية ، ولم تكن معظم القبائل خارج المدينة لتسمع عن الاسلام ، أو تعرف عنه شيئا الا عن طريق ما يصل اليها من الشعر . هذا استثنينا بعض من كان يبعث بهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — من دعاة الاسلام ، وحتى هؤلاء ، فان الشعر القرشى كان يفسد عليهم عملهم ، ودعوتهم ، لأنه صادر عن مكة ، وهى مركز العرب الدينى والتجارى والثقافى،وعن قوم النبى ، والمفروض أنهم أعرف به وبدعوته من القبائل الأخرى .

لذلك قرر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفل هذا السلاح الذى أراد المشركون أن يتخذوا منه سلاحا ماضيا يشهرونه فى وجه الدعوة الاسلامية ، ويهدمون به كل ما يحاول أن يبنيه الرسول صلى الله عليه وسلم ليفوت عليهم غرضهم الذى كانوا يرمون اليه ، ويوجهه الى غير ما استعمله المشركون .

ومن ثم طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الشعراء أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم فقال : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم »(٣٣) ؟ فأجابه الى ذلك حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة، فانشرح صدر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لذلك ،وطلب أن يردوا عنه شعراء قريش(٣٤) .

---

(٣٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٧ .

(٣٤) انظر الاسلام والشعر ص ٦٧ ، ٦٨ ، د. سامى مكى العانى — سلسلة — عالم المعرفة — عدد يونيو ١٩٨٣ .

ومنذ ذلك الحين وقف شعراء الاسلام يذبون عن دينهم سهام أشعار المشركين وأذاهم ، وطالما توجهوا بأشعارهم من يثرب الى المشركين فى مكة ، ولذلك تكررت لفظة «أبلغ» و «من مبلغ» فى مطالع قصائدهم ، لبعد المشركين عنهم ، ولطبيعة الجدل والحجاج التى سيطرت على شعراء تلك الفترة .

وقد اشتهر حسان بن ثابت وكعب بن مالك — رضى الله عنهما — بأنهما كانا يهجوان بالوقائع والأيام ، ويعيرانهم بالمثالب ، كما اشتهر عبدالله بن رواحة — رضى الله عنه — بتعييرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهونه قول ابن رواحة « فما كانوا يبالونه ، اذ كان ذكرا لما هم عليه وراضون به »(٣٥) ، فلما استمع الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى هجاء حسان كفار قريش،قال :

« لهذا أشد عليهم من وقع النبل »(٣٦) .

من ذلك قول حسان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان قد هجا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاستأذنه حسان فى هجائه ، فأذن له فقال(٣٧) :

---

(٣٥) تاريخ الشعر السياسى للأستاذ أحمد الشايب ص ٨٠ .

(٣٦) الأغانى جـ ٤ ص ٦ .

(٣٧) ديوان حسان ص ١٥٩ . ابن هاشم : يعنى الرسول الواحد الوغد : يعنى أبا سفيان . القرد : القراد . بنت مخزوم هى فاطمة بنت عمر المخزومية أم أبى طالب وعبد الله « والد الرسول — صلى الله عليه وسلم) والزبير بن عبد المطلب ، فهى أم الرسول بذلك . ولم يقرب عجائز المجد : أى لم يقرب المجد أمهاتك . الزنيم : المستحلق فى قوم وليس منهم . سمية : أم أبى سفيان وهى ام ولد . وسمراء : هى أم أبيه ، وهى أم ولد أيضا .

لقد علم الأقـــوان أن ابن هاشـــم
هو الغصن ذو الأفنان لاالواحد الوغد
ومالك فيهم محتـــد يعـــرفونه
فدونك فالصق مثل ما لصق القـــرد
وان ســـنام المجـــد من آل هاشـــم
بنـــو بنت مخزوم ووالدك العبد
وما ولدت أفنـــاء زهـــرة منكـــم
كريمـــا ولم يقـــرب عجائزك المجد
ولست كعبـــاس ولا كابن أمـــه
ولكن هجـــين ليس يورى لـــه زند
وأنت زنيم نيـــط فى آل هاشـــم
كمـــا نيط خلف الراكب القدح الفرد
وان امـــرءا كانت ســـمية أمـــه
وسمراء مغلوب اذا بلغ الجهـــد

وهذا هجاء بالنسب ، لا يعف عن ذكـــر الآباء والأمهات ، فيعبـــر بالمثالب تعييرا كانت تعده العـــرب من الهجاء الفاحش ، ولذا لما بلـــغ هذا الهجاء أبا سفيان عرف أن أبا بكر هو الذى دل حسان عـــلى هذه المثالب ، فقال : « هذا شعر لم يغب عن ابن أبى قحافة »(٣٨) .

ولحسان ــ رضى الله عنه ــ شعر يهجو قبائل قريش التى كانت تناصب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ العداء ، يتحدث فيه عن القبائل ومثالبها ويذكرها بأسمائها ، فيقول(٣٩) :

---

(٣٨) انظر : ديوان حسان ص ١٦١ .

(٣٩) معيص بن عامر بن لؤى من قريش الظـاهر . وكان قد ولد حلا ومعيصا ، فنزل بنو حل مكة . وصاروا من قريش ابطاح ، ونزل

فلا والله ما تـــذرى معيص أسهل يطن مكة أو يفـــاع
وكل محـــارب وبنى مزارى تبين فى مشافرة الرضـــاع
وما جمـــع ولو ذكرت بشىء ولا تيم فذلكم الرضـــاع
لأن اللـــؤم فيهم مستبين اذ كن الوقـــائع والمصاع
ومخزوم هم وعـــدى كعب لئام الناس ليس لهم دفاع

فحسان هنا يهجو هذه القبائل بأنها لا شرف لها ولا خطر ، سفلة رعاع ، لا يثبتون فى القتال ، ومن ثم كان اعراضهم عن الاسلام،ورأيهم فى النبى ودعوته وأصحابه لا قيمة له ولا وزن ، وهو هجاء بالمثالب ، ونظيره كثير فى الهجاء الجاهلى .

الشعر فى غزوات الرسول(٤٠) :

وتواكب مسيرة الشعر مسيرة الدعوة فى غزواتها مؤرخة ومشاركة وكما كانت هناك المعارك بين المســلمين والمشركين مستعرة بالســيوف والرماح ، كانت هناك المعارك المستعرة بالشعر ، ولقد أبلى شـــعراء المسلمين ودافعوا عن الدين ، وأوضحوا مواقف المسلمين وشـــجاعتهم وطلبهم الشهادة واستعذابهم الموت فى سبيل الله ، فنرى الشعر يكثر وترتفع نغمته وتزداد حدته فى غزوة بدر ، وتظهر فى شعرهم نشـــوة النصر ، ولا ينسى الشـــعر تسجيل كل حادثة فيسجل حسان بن ثابت القاء قتلى المشركين فى القليب ومناداة الرسول صلى الله عليه وســـلم لهم ، فيقول مشيدا بنصر الله :

بنو معيص خارج مكة وصاروا من قريش الظواهر . تبين فى مشـــافره الرضاع : أى صعاليك سفلة يرضعون الشياة . وأثر الرضاع ظاهر على شفاههم التى يشبهها الشاعر بمشافر الابل ، سخرية بهم . الرعاع: غوغاء الناس وسفلتهم . المصاع : القتال .

(٤٠) وبعون الله تعالى ســوف نتنـــاول نماذج لبعض الغـــزوات وليس كلهـــا .

وخبـــر بالذى لا عيب فيـــه بصدق غير اخبار الكذوب
بما صنع المليك غـــداة بدر لنا فى المشركين من النصيب
غداة كان جمعهم حـــــراء بدت أركانه جنح الغـــروب
فلاقينـــــاهم منـــا بجمع كأسد الغاب مردان وشيب

ويستمر قائلا :

فغـــــادرنا أبا جهل صريعا وعتبة قد تركنا بالجبـــوب
وشيبة قد تركنـــا فى رجال ذوى حسب اذا نسبوا حسيب
ينـــاديهم رســـــول الله لما قذفناهم كباكب فى القليب
ألم تجدوا كلامى كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلـــوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأى مصيب(٤١)

ويشيد كعب بن مالك ــ رضى الله عنه ــ بنصر المسلمين فى بدر فهم قد وردوا بدرا بنور الله ، ويقودهم ويقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر من الله عز وجل وقضائه :

وردناه بنـــور الله يجلـــو دجى الظلماء عنا والغطاء
رسول الله يقـــــدمنا بأمر من أمر الله أحكم بالقضاء(٤٢)

ويسلك معبد الخزاعى مسلكا آخر فى خدمة الدعوة الاسلامية وحضرتها، حيث راح يخذل أبا سفيان بن حرب عن الرجوع لقتال المسلمين وأهل المدينة ، بعد بدر ، ويصف خيل المسلمين الكثيرة ، وفرسانهم الصناديد، الذين جمعهـــم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ غداة بدر لطـــلب

---

(٤١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٥ . الجبوب : وجه الأرض . الكباكب : الجماعات .

(٤٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٢ .

العدو ، ويهول فى ذلك ليقذف الرعب فى قلوب المشركين ، ويثنيهم عن قتال المسلمين(٤٣) .

كادت تهد من الأصوات راحلتى
اذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة
عند اللقاء ولا ميل معازيل
فظلت عدوا أظن الأرض مائلة
لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم
اذا تغطمطت البطحاء بالجيل
من جيش أحمد لا وخش تنابلة
وليس يوصف ما أنذرت بالفيل

ولم ينس الشعر أن يسجل ما كان من المشركين مع السيدة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم عقب غزوة بدر ، فقد أسر زوجها أبو العاص بن الربيع الذى كان قد بقى على كفره ولم يطلقها مع اسلامها،ومن عليه المسلمون بالفداء،فوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلى سبيل زينب ، فوقف المشركون وعلى رأسهم أبو سفيان دون تحقيق وعده ، ثم سمحوا له أن يلحقها بأبيها سرا بعد اصابتها ، فقال أبو خيثمة بن عوف،فى ذلك شعرا ، وفى النهاية يهدد أبا سفيان بأنه ان لم يسلم ويخلص السجود لله تعالى فسيصيبه خزى الدنيا وعذاب الآخرة :

---

(٤٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٤٥ . الجرد : العتاق من الخيل والأبابيل : الجماعات . تردى . تسرع . والتنابلة : القصار الميل : الذين لا رماح معهم . والمعازيل : العزل من السلاح تغطمطت : اهتزت . والجيل : الصنف من الناس .

أتانى الذى لا يقدر الناس قدره
لزينب فيهم من عقوق ومأثم
واخراجها لم يخز فيها محمد
على مأقط وبيننا عطر منشم(٤٤)
وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم
ومن حربنا فى رغم أنف ومندم

ثم يقول :

فأبلغ أبا سفيان أما لقيته
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجل
وسربال قار خوالدا فى جهنم

ويستمر الشعر فى مواكبة الدعوة الاسلامية يسجل أحداثها ويشيد بما تقدمه للانسان ، حتى الأحداث الصغيرة مثل مقتل كعب بن الأشرف ، ولكنه يقف وقفة طويلة عند غزوة أحد ، وذلك لأنه كان هناك احساس خفى بأن نفوس المسلمين فى حاجة الى التخفيف عنها ورفع معنوياتها من جهة ، ولأن شعراء المشركين حاولوا أن يعيدوا الثقة الى فريقهم فقالوا فى الاشادة بهذا النصر وأطالوا الانشاد ، فكان على شعراء المسلمين أن يحطموا هذه الثقة ، وأن يثبتوا نفوس المسلمين بهذا الفن الذى يجله العرب وهو الشعر ، بجوار تثبيت القرآن الكريم ، ومن ثم أطال أكثر شعراء المسلمين فى الرد على شعراء

---

(٤٤) السيرة النبوية جـ ٢ ص ٢١٦ .
المأقط : معترك الحرب ، وعطر منشم : كناية عن شدة الحرب والصلة أن امرأة تسمى منشم كانت تبيع الطيب ، وأن قوما تحالفوا على الموت فغمسوا أيديهم فى طيب منشم ، فضرب مثلا فى شدة الحرب .

المشركين وطالت قصائدهم عنها فى بدر ، ومن أهم القصائد قصيدة كعب بن مالك — رضى الله عنه — ، التى يجيب فيها هبيرة بن أبى وهب • وقد صور كعب فى قصيدته مدى طاعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم ، فهم لا يترددون فى ذلك ، وأنهم يشاورونه فيما يريدون وغايتهم من المشاورة أن يطيعوه ويسمعوا لا أن يخالفوه ولم لا وجبريل ينزل عليه من عند ربه عز وجل ، ومما أطاعوا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم اقبالهم على الحرب فى شجاعة واستبسال ، مع نبذ الخوف ، والطمع فى الشهادة ، فمن يستشهد كمن باع حياته تقربا الى الله تعالى ، وما دام الأمر كذلك فخذوا أسيافكم واحملوا على الأعداء متوكلين على الله ، فان الأمر جميعه لله تبارك وتعالى(٤٥) :

ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنا
علام اذا لم تمنع العرض نزرع
وفينا رسول الله نتبع أمره
اذا قال فينا القول لا نتطلع
• تدلى عليه الروح من عند ربه
ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصرنا
اذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا
ذروا عنكم هول المنيات وأطمعوا
وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا
الى ملك يحيا لديه ويرجع

---

(٤٥) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٦٦
ابتنوا : ضربوا أمنيتهم • والعرض : قرى المدينة لا تنطلع : لانميل
قصرنا : غايتنا •

ولكن خـــذوا أســيافكم وتوكلوا
عـــلى الله ان الأمـــر لله أجمـــع
فسرنا اليهـــم جهمـــرة فى رحـــالهم
ضحيا عليـنـــا البيض لا تتخشـــع
بملمـــومة فيهـــا الســـتور والقنا
اذا ضربوا أقدامهـــا لا تورع(٤٦)
فجئنـــا الى موج من البحر وسطه
أحابيش منهم خـــاسر ومقنـــع
فلما تلاقينـــا ودارت بنـــا الرحى
وليس لأمر حمـــه الله مدفـــع

ونلحظه فى هذا البيت الأخير يمهد لما حدث من هزيمة فى أحـــد ، ويبين أن الهزيمة وقعت لأمـــر أراده الله تعالى ، وليس لمـــا أراد الله جل شأنه مدفع ؟ وذلك لأنهم انتصروا فى أول الأمر ، ويؤكد هذا المعنى فيقـــول(٤٧) :

فنلنا ونال القـــوم منا وربمـــا
فعلنـــا ولكن ما لدى الله أوســـع
عمـــدنا الى أهـــل اللواء ومن يطـــر
بذكر اللواء فهو فى الحمـــد أسرع
فخـــافوا وقد أعطـــوا يدا وتخاذلوا
أبى الله الا أمـــره وهو أصـــنع

ويذكر كعب بن مالك ـــ فى قصـــيدة أخرى ـــ شعراء المشركين ،

---

(٤٦) الملومة : الكتيبة المجتمعة ، والستور : السلاح .
(٤٧) السيرة النبوية جـ ٣ ص ٦٦ .

الذين يشيدون بنصرهم فى أحد ـ بانتصار المسلمين يوم بدر،ففى يوم بدر كان لنا مدد من الله جل شأنه ، فكان مع النصر ميكال وجبريل ، وبأنهم قتلوا أصحاب اللواء يوم أحد ، ثم يثير قضية حيوية الى الانسان المسلم وهى أن القتل فى سبيل الله والحق والدين فضل عظيم، جزاؤه الخلود فى الجنة ، وعلى أساس من هذا نقض فخر المشركين وشعرائهم بأنهم قتلوا من المسلمين يوم أحد ، اذ قتل المسلم لا فقر فيه ، لأنه لا يعقب شرا بل يعقب خيرا كثيرا وفضلا عظيما ، ويجادلهم أيضا فى أساس الخلاف والصراع بين المسلمين والمشركين ، وهو الايمان بالاسلام وما جاء به أو معارضته ، ويرد عليهم وعلى رأيهم فى المسلمين بأنكم ان تروا أمرنا وما كان من اسلامنا سفها ، فالحق أن رأى من خالف الاسلام هو الذى بعد تماما عن الصواب،وهو التضليل بعينه(٤٨) :

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه
والصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم
أهل اللواء ففيما يكثر القيل
ويوم بدر لقيناكم لنا مدد
فيه مع النصر ميكال وجبريل
ان تقتلونا فدين الله فطرتنا
والقتل فى الحق عنده تفضيل
وان قروا أمرنا فى رأيكم سفها
فرأى من خالف الاسلام تضليل

---

(٤٨) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٣ ص ٧٧ .

ويتم اجلاء بنى النضير من اليهود بسبب غدرهم ومحاولتهم قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرى كعب بن مالك أن ما حل بهم كان بسبب كفرهم بالله العلى الكبير ، مع أنهم قد أوتوا فهما وعلما وجاءهم من الله النذير ، وهو نذير صادق ، جاء بكتاب وآيات مبينات ، فكذبوا وأنكروا وقالوا ما أتيت بأمر صدق ، فرد عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه قد جاء بالحق ومن يتبعه يهدى لكل رشد ، ومن يكفر يجز الكفور(٤٩) :

لقد خربت بغدرتها الحبور
كذاك الدهر ذو صرف يدور
وذلك أنهم كفروا برب
عزيز أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهما وعلما
وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتابا
وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق
وأنت بمنكر منا جدير
فقال بلى لقد أتيت حقا
يصدقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد
ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أشربوا غدرا وكفرا
وحاد بهم عن الحق النفور

---

(٤٩) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١١٥

أرى الله النبـى بـرأى صـــدق
وكـان الله يحكـــم لا يجـــور
فأيـــده وســـلطه عليـــهم
وكان نصـــيره نعـم النصـير

ومن النظرة الأولى يبدو لنا أثر الاسلام فى الأبيات واضحا،فهى ترداد وصـدى لما كان يدور فى ســاحة الدعوة والصراع ، ولا عجب فالشاعر كان يعيش هذه الدعوة وذلك الصراع .

ويرى قيس بن بحر الأشجعى فى اجلاء بنى النضـير علامة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ورفعة شأن الدعوة وظهـورها ، فينصح قريشا بالطاعة لله ولرسوله وأن تدين له بالحق فهو معـان بروح القدس ، وقد انتصر ببدر ، وها هو ذا ينتصر على اليهود فأمره يزداد علوا فى كل موطن وذلك لأمر قدره الله تعالى(٥٠) :

فمن مبلـــغ عنى قريشـــا رسالة
فهل بعـدهم فى المجـد من متكرم
بأن أخـاكم فاعـــلن محمـــدا
تليـــد الندى بين الحجون وزمزم
فدينوا له بالحق تحســـم أموركم
وتسموا من الدنيـا الى كل معظـم
نبى تلاقتـــه من الله رحمـــة
ولا تســألوه أمـر غيب مرجـــم

---

(٥٠) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ١١٣ .
الحجون : موضع بمكة . المرجم : غير المتيقن .
العلم : الموضع العالى . حمه : قدره .

فقـــد كان فى بدر لعمرى عبـرة
لكـم يا قريش والقليب الملـــمم
غـــداة أتى فى الخزرجية عـــامدا
اليكم مطيعـــا للعظيم المكـــرم
معـانا بروح القـــدس ينكى عدوه
رســـولا من الرحمن حقـا بمعلم
رســـولا من الرحمن يتلـو كتابه
فلمـــا أنار الحـق لم يتلعثـم
أرى أمـــره يـزداد فى كل موطن
علـــوا لأمـر حمـه محكـم

ويهدينا الشـعر الى النظر الاسلامى من خـلال غزوة الخنـدق فيصور حسان بن ثابت ، وهو يرد عـلى ابن الزبعرى : وكيف جمـع الأحزاب جموعهم ، ألبوا أهـل القرى وبوادى الأعـراب ، ثم وردوا المدينة على أمل النصر والغنيمة ، وكيف ردهم الله بغيظهم على أعقابهم، وذلك بهبـوب عاصـفة فرقت جمعـهم ، وكفى الله المؤمـنين شـر القتال(٥١) :

وأشك الهموم الى الاله وما ترى
من معشر ظلموا الرسول غضـاب
ســاروا بأجمعهم اليـه وألبـوا
أهـل القرى وبوادى الأعـــراب
جيش عينيـة وابن حـــرب فيهـم
متخمطـون بحليـــة الأحـزاب

---

(٥١) المرجع الســابق جـ ٣ ص ١٥٩ . متخمطون : مختلطون . الحلية : الخيل المعدة للسباق .

حتى اذا وردوا المدينة وارتجـــوا
قتلى الرســول ومغنم الأســـلاب
وغـدوا علينـا قـــادرين بأيديهم
ردوا بغيظـهم عـلى الأعقـــاب
بهبـــوب معصفة تفـــرق جمعهم
وجنـــود ربك ســـيد الأربـاب
فكفى الالـــه المؤمنـــين قتالهم
وأثابهم فى الأجر خير ثـواب
من بعـد ما قنطـــوا ففرق جمعهم
تنـــزيل نصـــر مليكنا الوهاب

وبعد أن ردت الأحزاب على أعقـابها حاصر الرســول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بنى قريظة ، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وفيهم يقول حسان بن ثابت ، مبينا سبب ما أصابهم ، وذلك أنهم أوتوا الكتاب فضيعوه،وهم قد عموا عن التوراة وضلوا لأنهم وذلك أنهم الكتاب فضيعوه ، وهم قد عموا عن التوراة وضلوا ، لأنهم كفروا بالقرآن الكريم ، وكان حقهم أن يؤمنـوا به ، لأن الله تعـالى آتاهم الكتاب وزودهم بما من شأنه أن يصدقوا ما جاء به الرســول النذير صلى الله عليه وسلم(٥٢) :

تفـــاقد معشـــر نصروا قريشا
وليس لهم ببلـــدتهم نصـــير
هم أوتوا الكتـــاب فضـيعوه
وهـــم عمى من التـــوراة بـــور
كفـــرتم بالقـــرآن وقد أتيتم
بتصـــديق الذى قال النـــذير

---

(٥٢) المرجع السابق ص ١٦٩ . تفاقد : هلك . بور : هلكى .

وتظل ملحمة الدعوة الاسلامية فى صراعها مع أعدائها ، ويظل الشعر مواكبا لها ، ويأتى يوم خيبر ، وهى آخر معقل لليهود فنجد كعب بن مالك ــ رضى الله عنه ــ وهو يتحدث عن فتح هذه القرية ، يخص المقاتل المسلم بشىء من الحديث ويذكر بعض الصفات التى أصبحت جزءا من كيان وشخصية كل مسلم فى ذلك الزمان ، فيصفه بصدق الايمان ، وقوة الشجاعة ، واذا كان غيره يخشى الموت والقتل ، فانه يرى القتل شرفا يمتدح من أجله ولهذا يقبل عليه ولا يخشاه،لأن القتل يدل على الاخلاص فى القتال ، ولأن المقاتل ينال الشهادة ، كما يصفه بأنه يدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن كل ما يتصل به باللسان وباليد ، ويقدم نفسه فداء له ويصدق بكل ما يأتى به الغيب ، ويريد بذلك الفوز فى الآخرة(٥٣) :

يرى القتل مدحا ان أصاب شهادة
من الله يرجوها وفوز بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد
ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يرميه
يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالانباء بالغيب مخلصا
يريد بذاك الفوز والعز فى غد

ويواكب الشعر أحداث الدعوة الاسلامية فنجده يتناول أحداث فتح مكة فهناك قصيدة طويلة لحسان بن ثابت فى ذلك الصدد وان كان البعض يرى أنها قيلت قبل الفتح نظرا لما ذكر فيها أيامه الأولى عند الغساسنة بالشام ، وما كان له من لهو وشراب ، على مثل ما كانت

---

(٥٣) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

عليه المطالع الجاهلية ، مما يدل على أنه قالها على غير عجلة من أمره ، ومنها قوله(١) :

عدمنـــا خلينا ان لم تروها تثير النقـــع موعدها كداء
ينازعن الأعنـــة مصغيات على أكتافها الأسل الظمـــاء

فهو هنا يتحدث عما سيحدث فى المستقبل ، وليس عن شىء قـــد حدث بالفعل • والذى يبدو للناظر أنه أعدها والمسلمون فى الطريق الى مكة لفتحها ، وربما أضاف اليها أشياء بعد الفتح أو يومه ، ويرجع ذلك الى ما قاله ابن هشام عن القصيدة : «قال حسان يوم الفتح»(٥٤) •

ومما يؤكد هذا الرأى من أنه أعد هذه القصيدة والمســـلمون فى الطريق الى فتح مكة ، انه بعد المقدمة أخذ يحذر المشركين ويخوفهم ، ويبين لهم أن المسلمين قد أتوا مستعدين بالخيل والسلاح ، وأن الهدف هو فتح مكة ، واذا لم نحقق هذا الهدف فلا خير فى شىء ، ولنفقـــد خيلنا ووسائلنا وكل معاداتنا مادامت لم تحقق غايتنا هذه ، وهى غاية ايمانية من أجل نصرة الدين واستقرار الاسلام،واعلاء كلمته وانتشاره، فان أذعنتم ولم تقـــاتلوا اعتمرنا وتم الفتـــح ، والا فهى الحـــرب ، ولا تنسوا أن جبريل رسول الله وروح القدس فينا يحارب معنا،وهو ليس له كفاء ولا نظير ، والله جل شأنه معنا ، ولهذا ســـيكون النصر حليفنا ، فالله يعين من يشاء،ونحن حزب الله والمؤمنون به :

فاما تعرضوا عنـــا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
والا فاصبروا لجـــلاد يوم يعين الله فيه من يشـــــاء
وجبريل رسول الله فينـــــا وروح القدس ليس له كفاء

---

(٥٤) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٤٧ وما بعدها •

ثم نجده ينتقل الى القضية الايمانية ، وهى أساس الخلاف ولب الصراع بين المسلمين والمشركين ، وهى تتلخص فى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم المشركين الى التخلى عن الشرك ، والايمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

فيحاول حسان بن ثابت — نضر الله وجهه — افحم المشركين ، فيبين لهم أن أساس الدعوة من عند الله ، وأن الداعى هو الله جل شأنه ، فهو الذى اختار رسوله ، وهو الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أرسله عبدا منكم ، وقد كان مشهورا بينكم بالصدق والأمانة ، وهو يقول الحق ، والله عز وجل — هو الذى طلب منكم أن تصدقوه ، وقد شهد به ، فقد قال تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا »(٥٥) فالله سبحانه وتعالى هو الذى يطلب منكم الايمان والتصديق ، والرسول ما هو الا مبلغ ، ولكنكم أعرضتم وقلتم : لا نستجيب ولا نريد ، فلم تستجيبوا للداعى الحق ، وأنتم بهذا تعارضون الله تعالى وتحاربونه :

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق ان نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم لا نقوم ولا نشاء

ويهاجم عبد الله بن رواحة — رضوان الله عليه — كل من يصد عن الدعوة ويقف فى وجه الايمان والاسلام ، فيطلب من مشركى قريش ومن كل الكفار فى عمرة القضاء ، حين دخل مكة آخذا بخطام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم : أن يتركوا سبيل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ولا يقفوا فى وجه الدعوة الاسلامية ، لأن كل الخير فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يواجههم بأنه مؤمن بقوله :

---

(٥٥) سورة النساء الآية ١٦٦ .

قرآنا وسنة ، ويعرف حق الله فى قبول هذا القـول وقبول الرسـول صلى الله عليه وسلم وما يمثله(٥٦) .

خلـــو بنى الكفـــار عن ســـبيله
خلـو فكل الخـــير فى رســـوله
يا رب انـــى مـــؤمن بقبيـــــله
أعـــرف حـــق الله فى قبـــوله
نحن قتلنـــاكم عـــلى تأويلـــه
كمـــا قتلنـــاكم على تنـــزيله
ضربا يزيل الهـــام عن مقيـــله
ويذهـــل الخليـــل عن خليله

وينسب ابن هشام البيتين الأخـيرين الى عمـار بن ياسر ، وأنه قالها فى غير هذا اليوم،واستدل على ذلك بأن « ابن رواحة انما أراد المشركين ، والمشركون لم يقروا بالتنزيل ، وانما يقاتل على التأويل من أقر بالتنزيل »(٥٧) وقد رد الأستاذ محمود شاكر على هذه الشبهة بأن « ليس المراد بالتأويل فى البيت تفسير الكلام الذى تختلف معانيه،بل التأويل هنا هو ما يؤول اليه نبأ الله لنبيه ، ومصير المؤمنين الى مـا وعدهم به »(٥٨) .

ولما توجه النبى صلى الله عليه وسلم لفتح الطائف أخذ شـداد ابن عارض الجشمى يخوف أهل الطائف من لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويهددهم ، ويبث فى روعـهم أنهم لا قبل لهم بحـرب المسلمين ، ويدعوهم الى الايمان ونبذ الشرك والوثنية فقال :

---

(٥٦) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٥ .
(٥٧) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ٥ .
(٥٨) طبقات فحول الشعراء ، هامش جـ ١ ص ٢٣٤ .

لاتنصروا اللات ان الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصر
ان التى حرقت بالنار فاشتعلت ولم يقاتل لدى أحجارها هدر
ان الرسول متى ينزل بساحتكم يظعن وليس بها من أهلها بشر

وقد أتت أشعار المسلمين كلها،وقطف المسلمون ثمارها اليانعة عندما ارهبت المشركين ، وأدخلت الرعب والفزع فى قلوبهم ، حتى أسلمت قبائل بأسرها فرحا من تلك الأشعار •

فقد قدم نفر من مزينة على رسول الله،وفيهم خزاعى ابن عبدنهم، الذى بايعه على قومه مزينة ، ولما خرج الى قومه لم يجدهم ، كما ظن فأبطأ عن الرسول ، فدعا حسان بن ثابت ، وقال له :

اذكر خزاعيا ولا تهجه • فقال حسان أبياتا مطلعها :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا بأن الذنب يغسله الوفاء

فقام خزاعى فقال : يا قوم خصكم شاعر الرجل ، فأنشدكم الله•

قالوا : فانا لا ننبو عليك ، وأسلموا ووفدوا على النبى ، وكان عددهم أربعمائة(٥٩) •

وأعلنت قبيلة دوس اسلامها فرقا من قول كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ثم أجمعنا السيوفا
نخيرها ولو نطقت لقالت قواطعهن : دوسا أو ثقيفا

فقالت دوس : انطلقوا ، فخذوا لأنفسكم لا ينزل بكم ما نزل بثقيف واذا ما انتقلنا الى عام الوفود وجدنا أن الشعر يدافع عن الدعوة ويسكت كل الألسنة ويخضع أعناق أصحابها الى أمر الله وقد تمثل هذا فى مواقف كثيرة ، من أشهرها ما قيل فى الرد على وفد تميم•

---

(٥٩) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٥٧ •

فقد روى أن الزبرقانى بن بدر لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم قام فقال(٦٠) :

أتينـاك كيما يعلم الناس فضلنا
اذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنا مروع النـاس فى كل موطن
وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين اذا انتخوا
ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع فى كل غارة
نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

فقام حسان بن ثابت فرد عليه بقوله :

هل المجد الا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبى محمدا
على أنف راضى من معد وراغم
بحى حريد أصله وثراؤه
بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل وسط ديارنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بيننا دونه وبناتنا
وطبنا له نفسا بغى المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا
على دينه بالمرهفات الصوارم

---

(٦٠) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٥٦ .

ونحن ولدنا من قريش عظيمها
ولـدنا نبى الخـير من آل هاشـم
بنى دارم لا تفخـروا ان فخـركم
يعـود وبالا عنـد ذكر المكـارم
هبلتم ، علينـا تفخـرون وأنتم
لنا خـول ما بين ظئر وخـادم
فان كنتـم جئتم لحقـن دمائكم
وأموالكم أن تقسـموا فى المقاسم
فلا تجعلـوا لله ندا وأسـلموا
ولا تلبسـوا زيا كزى الأعـاجم

فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى ان هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا • فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحسن جوائزهم •

وهكذا واكب الشعر الدعوة الاسلامية وعاش معها بكل أبعـادها يؤرخ لها بمشاركته فى كل أحداثها ، ويبين جهادها وما تجاهد فى سبيله ويشارك فى غزواتها ، ويوضح ما تؤمن به وتدعو اليه ، ويظهر ايمانه بمبادئها وأهدافها ، ويحارب من تحاربه وما تحاربه ، فيهاجم الشرك بكل صوره والمشركين ، ويتغنى بالمبادىء الفاضلة والايمان الصـادق ويشيد برسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الدعوة الذى أرسـله الله رحمة للعالمين •

د• عيد عبد الرحمن قناوى